

النص الختام والقرآت المتعددة في كتاب معتقل أنصار (*)

محمد علي شمس الدين

■ مدخل

ما أقدمه هنا، ليس دراسة أدبية لكتاب معتقل أنصار، بالمعنى المتداول للدراسة الأدبية، إنه محاولة تركز على التعامل الحسي أو اللمسي مع جسد المعتقل، الذي يظهر من الخارج كالقنفذ، ولكنه يشتمل على قلب طري وهلامي من لحم ودم وعصب... وسيكون النفاذ إلى القلب (أو داخل كرة الشوك) من خلال الأشواك عينها المستننة والحارسة لهذا القلب. إنها دليل القارئ والداخل معاً... لذلك فاختيار ملاس ومفاتيح القراءات المقترحة لهذا الكتاب، جاء خاضعاً لهذا التصور، وما الشواهد الأدبية التي وردت في ثنايا النص، إلا من ضمن هذا التصور أيضاً (خصوصاً في الفصل المسمى انتهاك الجسد الأنصاري من خلال بعض شواهد السيرة والشعر...).

ومادة النص الأساسية هي الكتابات الصادرة عن أسرى خرجوا من المعتقل، من مشاهدات وحوادث مسجلة، وكتابة سيرة ذات أو سيرة جماعة، ورسائل وأشعار، ومشاهدات حسية، ومقابلات مع نزلاء سابقين للمعتقل... فضلاً عن أشعار ورسائل وتأملات لبعض الأسرى كتبوها في المعتقل أو بوحى منه. هذه المادة الأساسية الختام للدراسة، نسميها هنا «كتاب معتقل أنصار»... والحقيقة هي أنها جزء من هذا الكتاب، جزء يسير تيسر لنا منه في البحث... ونحن نعتقد أن هناك صفحات كثيرة منه لم تصل إلينا لأسباب متعددة، وصفحات أكثر لم تكتب حتى الآن، بل بقيت في صدور أصحابها، وربما خرجت إلى الضوء في يوم من الأيام، ولكن... ربما طويت إلى الأبد أيضاً... لذلك فالمحاولة (محاولتنا هنا...) تبقى في نطاق مجتزأ من هذا العمل الذي نتصوره كبيراً ومدعاة للاهتمام... إننا هنا فقط في حدود التحريض أو الاقتراح...

(*) محاضرة ألقى في اتحاد الكتاب اللبنانيين في 1986/8/7 بمناسبة يوم التضامن العالمي مع معتقلي أنصار، بدعوة من اتحاد الكتاب واللجنة العليا للمعتقلين.

● فصل : النص الخام . . . والقراءات الناقصة لكتاب أنصار

كتاب معتقل أنصار كتاب هائل، كتبت أجزاءه بأقلام عديدة (وأقول بأجساد عديدة) ربما تفوق العشرة آلاف جسد، وعلى مدى زمني يقارب السنوات الثلاث . . .

ولكنه لم يقرأ حتى اليوم القراءات التي يستحقها كتاب عربي معاصر بمثل عظمته ودلالته . . . فبالإمكان اعتبار هذا الكتاب النصّ الجنيني الخام المحرّض على قراءات متنوعة تبدأ من وصفه وسرد حدثياته ووقائعه وتجميع أخباره وتنتهي بتأويله واستخراج أسرارهِ.

من الوثيقة إلى التأويل، تأخذ الوثيقة في كتاب أنصار أهميتها القصوى والحاسمة. من هنا يتصدر الجانب السردى أو الوصفي للأحداث، المكان، ويأخذ الأولوية في كثير من مواضع النص . . . فضلاً عن كونه المرجع الأساسي لكل تأويل أو استنتاج. إن قراءات متعددة يمكن أن تقرأ لكتاب معتقل أنصار، تتناول فيما تتناوله، معاني الأسر والحرية، المنزل والعائلة، الوطن، الموت، الحياة، الخيانة، الصبر، الذكرى، الله . . . الوطن، البطل، الايمان، الحنين، الزمن، المكان، الشعور، التسلية، القهر، حسّ الجماعة، اليأس، العطف، الحقد، الانتقام . . . الخ.

فكل عنوان من هذه العناوين، صالح لأن يكون باباً من أبواب الدخول إلى المعتقل، أو ذريعة لقراءة من قراءاته.

ومن الملفت مثلاً، ملاحظة أن كل باب في هذا الكتاب، قد يفضي إلى نقيضه، فكتاب معتقل أنصار، وإن كان كتاب أسرى ومعتقلين مثلاً، إلا أنه كتاب حرية بامتياز . . . تحسّ معه أن الأسرى هم وحدهم الأحرار في هذا العالم، وأنتك، وأنت خارج المعتقل، مصاب بحرية ناقصة، لن تكتمل إلا في الأسر.

يقول لامع الحر في مخطوط له بعنوان «مهاجر من أنصار»⁽¹⁾ : «كنا ندرى تماماً أن السجناء الحقيقيين هم أولئك الذين يرتعون بعيداً عن الأسوار».

وجاء في تقديم كتاب «جمهورية أنصار العربية» لحسين شعيب: «كان بإمكان الفتى المعتقل في أنصار أن يوجه طرفه في كل صباح إلى العرب الموجودين خارج المعتقل ويقول لهم: عموا عذاباً أيها السجناء»⁽²⁾ . . .

.....
.....

هذه المسألة التي تتناول علاقة الأسير في أنصار بالحرية، هي بالفعل مسألة مركّبة، وينبغي عدم الاكتفاء فيها بزوايا واحدة وطنية أو اجتماعية أو أخلاقية . . . الخ . . .

لقد كان لدى الأسرى، مثلاً، إحساس أكيد بأنهم يمثلون شعباً هو معتقل وإن كان خارج الأسوار . . . وربما تولد لديهم أحياناً إحساس آخر بأنهم أكثر حرية منه.

يقول حسين بيضون في كتابه «غضب الأسر»⁽³⁾:

«كان أن حصل في أنصار ما لم يحصل في أصقاع أخرى من أوطاننا، ليس فيها أبراج مراقبة ولا أسلاك

شائكة. فوجدت في المعسكر شوارع لا يجرؤ الإسرائيلي المدجج بالسلاح على مجرد اجتيازها. وهو أمر لم يثبت له نظير في أية بقعة عربية مختلفة».

وبإمكاننا الوصول إلى إستنتاجات أخرى في مسألة الحرية وعلاقة أسرى أنصار بها... فليس العرب الذين هم خارج المعتقل وحدهم هم الأسرى في نظر شهود أنصار، بل المعتقل الإسرائيلي ذاته، هو أسير أيضاً. وآسره هو أسيره بالذات. فالجلاد الصهيوني كان في معتقل أنصار، أسير هلع، وقد ستره وراء قناع الحديد والنار. فليس القمع الإسرائيلي سوى وجه من وجوه الهلع... «هذا الهلع الظاهر في عيون الجنود الأفراد على الحواجز وفي المعسكرات»⁽⁴⁾.

والشواهد على هذا الهلع أكثر من أن تحصى... حتى أن الأطفال أخذوا يتداولونها...

.....

.....

إن هذا الإحساس الفادح بالحرية لدى الأسرى، لم يكن في واقعه إحساساً غنائياً أو صافياً وبرشاً، إلى حدود قصيدة رومانطيكية، بل كان إحساساً مرّاً وشوكياً... أو أسود كمأساة كافكاوية.

يقول سعدون حسين في إحدى رسائله المرسلة من المعتقل إلى ولده، والمؤرخة في 28 آب 82⁽⁵⁾:

«الحرية يا ولدي أعظم ثروة في الوجود لدرجة أننا عندما لمحنا كلباً خارج الأسلاك، تمنينا أن يكون أحدنا ذلك الكلب...».

.....

.....

كما أننا من باب الأسر في كتاب أنصار نفضي إلى باب الحرية، أو باب المقاومة، فإننا كذلك من باب الموت نجد أنفسنا فجأة واقفين مبهورين في باب الحياة ومغسولين بالضوء والمطر كالأطفال. المعتقل مطهر (بالتعبير المسيحي) أو هو قيامة إسلامية حقيقية... ومذهلة فيه تلك التفاصيل المروية عن التثبث بالحياة، إلى درجة نعتقد معها أنه ستطول كثيراً تحاليل الخبراء والدارسين لهذه الظاهرة... ولن تكون تحاليل الكومبيوتر وحدها صالحة لفهمها في كل حال.

وأول مظاهر التثبث بالحياة، هو أن المعتقل بدأ ينظم نفسه بالتدريج، حتى أصبح جسداً واحداً متناغماً كساعة حجاب... الأسرى ينتظمون في مجموعات خاصة بهم، يتواصلون على طريقة الرعيان (بواسطة الحجارة)، يقومون بالانتفاضات يعتصمون، يتظاهرون ويصومون عن الطعام ويتزعجون المطالب مطلباً. ينبدون المخاطر والشاوشية المشبهين ويتخذون منهم مواقف هجاء وعداء⁽⁶⁾. .. يسهرون ويسمرون ويقومون الندوات السياسية والشعرية، وينقلون إلى داخل المعتقل بعضاً من طقوس الخارج (السياسية والفشوية) التي ما زالت تعيش أو تعيش فيهم... ينظمون حلقات لتعليم الأميين وأخرى لتعليم القرآن واللغات الأجنبية.

... وهكذا، بدافع رغبة الحياة الهائلة لدى المعتقلين، يتحول المعتقل إلى خلية منظمة، أو إلى مدرسة أو

كلية⁽⁷⁾.

إن هذه الوسيلة التنظيمية التي ابتكرها المعتقل للصمود والتشبُّث بالحياة، كانت ترافقها وسائل أخرى صارخة اتبعها الأسرى إفرادياً أو جماعياً لإعلان حقهم بالحياة. يقول حسين شعيب في قصيدة «اللعبة الكبرى»⁽⁸⁾:

«لست أدري كيف من أجل الحياة
يصبح الموت ضرورة».

من هذه الوسائل مثلاً، محاولات الهروب الكثيرة التي نجح بعضها، ومني بعضها الآخر بالفشل، وكان عقابه الموت. نذكر هنا محاولة الأسير المهندس عباس بليطة، الذي صمم بالوسائل والأدوات البدائية المتوفرة له طائرة شراعية ليطير بها فراراً من المعتقل... وقد اكتشف أمره واستشهد قبل أن يستخدم هذه الطائرة. وترك رسماً لها، ووصية مؤثرة موجهة إلى أهله وأصدقائه⁽⁹⁾.

«ومنهم من استطاع الفرار بشاحنة الماء أو النفايات، ومنهم من اخترق الأسلاك وفرّ خلسةً أثناء الليل بعد أن رصد تحرك الآليات وفق تبديل الحراس ومراقبة حالة الطقس قبل تحديد ساعة الهروب... ومنهم من حفر الأرض بأظافره مستعيناً بالآلات البدائية»⁽¹⁰⁾.

... لكن أهم الوسائل التي اتبعها المعتقلون، كانت تلك الوسائل الجماعية للتصدي، والتي كانت تصل أحياناً إلى درجة التصدي للموت بالموت نفسه... فقد «حسم البعض موضوع الحياة والموت»⁽¹¹⁾ كما يقول حسين بيضون.

وهنا لا بد من ذكر ثلاث محاولات جماعية قام بها المعتقلون للوصول إلى الحياة بملامسة الموت... وقد ذكرها معظم من خرجوا من المعتقل وسجلوا مذكراتهم ومشاهداتهم عنه.

المحاولة الأولى هي حفر نفق من معسكر (20) للهروب الجماعي إلى خارج المعسكر... وكانت الفكرة⁽¹²⁾ «تنصبّ حول حفر نفق يمتد من داخل المعسكر حتى خارج حدود المعسكرات بحيث يتم تحرير أكبر عدد ممكن من أسرى المعسكر. وابتدأ المخطط... كان العمل يستمر خلال أربع وعشرين ساعة متواصلة تتناوب المجموعات عليه ويتم الحفر بإحدى المجارف المصادرة من المعسكرات الجديدة وأوتاد الخيام المحترقة والسكاكين والأظافر إذا أمكن. وظهرت العقبة الأولى في المسافة الطويلة التي تفوق الخمسة وعشرين متراً وعلى عمق ثلاثة أمتار تحت الأرض ينعدم فيها الهواء. تمّ التغلب على هذه العقبة على بعد سبعة أمتار من بداية النفق، حيث أحضر غالون مياه فارغ مع نربيش كان يستعمل للمازوت سابقاً، وربط طرفه الأول بالغالون والطرف الآخر مع الأسير الذي يعمل في النفق ومن خلال الضغط على الغالون يرسل كميات من الهواء داخل النربيش فيتشققها الأسير الذي يعمل. أما بالنسبة للتراب الذي يتم استخراجها من جوف الأرض، فكان ينقل إلى داخل الخيام الصغيرة التي بنيت من الحرامات ليفرش فوق سطح الأرض وتحت الفراش بحيث تتعذر رؤيته. والموضوع الأهم هنا هو السرية حتى لا ينقل أحد المقتنعين الخبر إلى العدو... واستمر العمل ما يقارب العشرين يوماً إلى أن وصل النفق إلى الأسلاك الخارجية. وقد تمّ تدعيمه تحت الشارع بجسر من خشب الحمامات خوفاً من انهياره في أثناء عبور دوريات العدو... وكان العمل بحاجة إلى يومين للانتهاء... وكانت

حرية الحركة بين المعسكرات قد أخذت شرعيتها عندما فوجيء أسرى المعسكر بآليات العدو تطويقهم وتأميرهم بالخروج ليتم انتقالهم إلى معسكر (31) . . . وكان ذلك في الثاني من آب . . . »⁽¹³⁾.

أما المحاولة الثانية الجماعية فكانت عملية الامتناع عن الطعام حتى الموت . . . ومدلوها أنه إذا كان العدو الإسرائيلي يمارس التجويع على المعتقلين لتطويع إرادتهم وسلب حقهم في الحياة الحرة . . . فإنهم سوف يصعدون هذه المسألة حتى نهايتها اللامتنتزة . . . فيمتنعون هم عن الطعام حتى الموت . . .

وهنا نموذج من وصية أحد الممتنعين عن الطعام حتى الموت، نثبها لكونها تختصر هذه الطريقة الصارخة في تحدي الموت بالموت . . . »⁽¹⁴⁾.

«إلى أولادي

كونوا مؤمنين بلا هوادة، مقاتلين بلا هوادة، أشداء بلا هوادة حتى تنجلي كل الحقائق . . . حتى تنجلي كل المسائل . . . حتى تنجلي . . .

ليتني ما كنت وهماً، ليتني كنت المقاتل . . . ليتني ما كنت جهلاً بالحسين بن علي . . . أكلف والدي تنفيذ الوصية بإعطاء كل من له بذمتي أي حق، وأسامح بدوري كل من لي بذمته شيء . . . وإذا أحب أن يسده فليسلمه لوالدي . وبعد ذكر تفاصيل الوصية كتب في آخرها: لقد اتخذت قراراً بالامتناع عن الطعام حتى الموت محملاً بذلك كل المسؤولية للعدو الإسرائيلي ثم للصليب الأحمر الدولي الذي يشهد الزور بسكوته عن أكبر جريمة جماعية ترتكب في تاريخ القرن العشرين . . . ».

.....

والمحاولة الثالثة الجماعية للتحرر التي مارسها المعتقلون هي قرار المعتقل بإحراق نفسه . . . وقد اتخذ هذا القرار على ما يذكر حسين بيضون بتاريخ 83/6/5 (في الذكرى الأولى للاجتياح الإسرائيلي) بعد أن أطلق الجنود الإسرائيليون النار على أحد المعسكرات الشتوية فاستشهد أسيران سوريان . . . «فأخذ المعتقل قراراً بإحراق نفسه . . . وأعيد إلى الأذهان قرارا صيدا وصور التاريخيان . . . ونفذ القرار وأحرقت الخيم وبات المعتقلون في العراء»⁽¹⁵⁾.

والمعادلة الطريفة التي يضعها الكاتب لهذه الحادثة هي التالية⁽¹⁶⁾:

«عيدان الثقب المتوقفة + المازوت المتوفر + السبوتو + البطانيات + خيم تتركز على أعمدة من الذل + قهر متواصل وأمل بالإفراج ضعيف + إرادة وإيمان وتصميم على التحدي = أنصار يحترق» .

.....

.....

إن هذه الأحداث المذهلة والوقائع التي تلامس الأسطورة، التي حدثت في معتقل أنصار . . . كشواهد ممانعة وصمود، هي التي جعلت ضابط المخابرات الإسرائيلي يعلن أمام أحد المعتقلين لدى إستجوابه «تحفظون الأساطير وتصدقونها»⁽¹⁷⁾.

يقول المعتقل⁽¹⁸⁾: «كان المحقق قد صرخ غاضباً بالأسير، بعد أن عرض عليه إغراءات بشرط التعامل معهم

فرفض: أيها الكلب ستموت نفسك قبل جسدك... فقلت له (يقول الأسير): هذا قدرى... فقال: جيش الدفاع أقوى من القدر ومن الله...»⁽¹⁹⁾.

وقد تبين أن صمود هذه الفئة القليلة من الرجال في معتقل أنصار قد فكك المعتقل، وساعد في زحزحة حجر الجيش الذي لا يقهر عن صدر الأرض الجنوبية.

● فصل... في انتهاك الجسد الأنصاري من خلال بعض شواهد السيرة والشعر

قلنا إنه بالإمكان الولوج إلى كتاب أنصار من أكثر من باب... وإن كل باب فيه قد يقضي إلى باب... فالمعتقل وحدة كلية تكاد تكون وحدة وجود... ورأينا كيف أن باب الأسر يقضي إلى باب الحرية، وكيف أنه يطلب الموت لدى الأسرى والمعتقلين وهبت لهم الحياة...

... ولكن قراءة أخرى إضافية لهذه الذاكرة الطرية لكتاب المعتقل، سوف تظهر لنا كم كان الجسد العربي الأسير متتهكاً ومباحاً، في تلك الأرض المسورة... وهذه القراءة سوف نسميها قراءة جسد الأسير من خلال مذكراته وكتابات...

وقد تكون السطور الأكثر رسوخاً وبيناً لكتاب الجسد في أنصار، آثار التعذيب والسياس... البتر والتسميم الطبي... العته والعصاب... الباقية في أجساد بعض الأسرى الذين حملوا هذه السطور بعد خروجهم من المعتقل... وربما كانت أبلغ القصائد في أدب أنصار، بيانات الجسد.

■ حادثة

يقول سعدون حسين في كتابه «١٠٠ يوم في معتقل أنصار»⁽²⁰⁾:
«... وأبشع حادثة سمعنا عنها هي رفض العدو معالجة أحد الجرحى، وكان يعاني من شلل. وعندما استيقظ في اليوم التالي وجد يده مجردة من اللحم... لأن النمل في تلك الليلة قد أكلها».

هكذا، الجسد البشري الذي هو أجمل ازدهارات الطبيعة (هيجل) وأبدع ما خلق الله عز وجل... تأكله النمل... وهو حي.

.....

.....

بالإمكان رصد مسائل دقيقة جداً في قراءة الجسد الأنصاري من حيث تعامل الأسير مع جسده من جهة، أو من حيث تعامل الجلاد الصهيوني مع هذا الجسد من جهة أخرى... فالأسير الذي يضيق حيزه الطبيعي والمكاني، كما يضيق حيزه الاجتماعي، سوف ينصرف إلى جسده الشخصي من جهة ليستعير به عن هذا الحيز المكاني والاجتماعي المفقود، قبل أن يستبدله بالأحلام أو الخيال.

... وحتى في الأحلام (والكتابة الشعرية جزء منها) سوف يكون الجسد حاضراً، وسوف يكون الجسد أدباً.

يقول لامع الحر: «أكتب ما تغفل من أقصى القلب إلى أقصاه»⁽²¹⁾ ويفتح قصيدة «الكرنفال» التي كتبها في المعتقل عام 1983 بما يمكن أن نسميه تحسيس الحلم أو جسّ الحلم:

«للحلم سيكار يمجّ أناته...»... ثم يلج الشاعر بعد ذلك في تجسّده للحلم إلى مواقع أكثر إثارة، فيراه صاعداً من «عمق الخاصرة»... ويمنحه أعضاء يشم بها ويمشي ويشق ويعشق.

«للحلم نهد عامر/يمشي على البیداء/يلوي عنقه شبقاً ولا يلتذّ في تجواله/للحلم سيدة وعاشق» (من الكرنفال). هذا التحسيس للحلم، يكون قد بدأ بتحسيس كل شيء يحيط بالأسير. إنه يباشر العالم بالحواس. التصاقه بأرض الخيمة سوف يكون له معنى خاص ومغاير في التصاق رادارات جسده بالتراب. عصبه لعينيه، كمنه لفمه، ربط يديه... كل ذلك سوف يجعل حواس تصب في حواس أخرى... تتضاعف الأصوات والروائح في الخيمة بشكل هائل... يتحفز اللمس ويصبح ناشزاً... يشفّ السمع حتى المرض. «زغردت العصفافير بشكل هستيري»⁽²²⁾ يقول لامع الحر، ويشم رائحة الزمن الذي «فاح كبحر»، ويرى له «ضوء كفصن»... وأول ما يحتفل به حين خروجه من المعتقل هو «عودة الساعة إلى يده» و«لمس المسبحة لأصابعه»... كما أنه حين يصف الكتابة يقول بأنها «تحترق الحواس»⁽²³⁾.

المعتقل يؤجج الحواس كما قلنا ويشحذها. يجعل الأجساد تتلقى تعاقب الفصول بارتعاشات خاصة. يقول حسن مرتضى في تعاقب فصلي البرد والنار⁽²⁴⁾:

«... لكنّ الخوف من البرد يراودنا/فيظل الميل إلى الدفء هو الأقوى/ويظل لسان النار هو الأمضى...» لكنه في لفظة أخرى نراه يصهر العناصر المحسوسة في الرمز فيقول:

«إن جهنم/لا يوجد فيها جمر»... «بل يوجد بحر مأسور...» ويتأمل الجبل المأسور كجبل مجنون⁽²⁵⁾.

إن هذا التعامل التجريدي مع العناصر في المعتقل، يشكّل سمة بارزة وخاصة في شعر حسن مرتضى الذي ينجح في معظم ما كتبه من شعر إلى الترميز وتأطير الصور في بناء متخيّل يلامس اللامعقول أحياناً...⁽²⁶⁾

وهو يبدو كشاعر تفجّر شعره في المعتقل كأنه يمثل حالة خاصة في طريقة كتابته الشعرية، لأنه يتلقى الأشياء والحوادث لا بالحواس والجسد بل بالذاكرة والمخيّلة... ويختلف لامع الحر عنه في هذا الباب، فيظهر في أشعاره المكتوبة في المعتقل أشدّ التصاقاً بالمحسوس والمعشوش والجسدي منه بالمعنى أو المتخيّل... إنه يعرف تماماً (كما يقول في كتابه المخطوط) إن «الفطرة كانت الموجّه الأول للأغنيات»... ويصرخ في قصيدة الكرنفال «الحلم يلفظ الأوساخ» وفي ما يشبه النشيج يقول: «دندني ما شئت من فضلات «أوجاعي»...» حيث كل خيال يترسّب في أصله الأرضي... في ترابه وكلسه وعظامه... وحيث الأسير يكون ملزماً بتسوير جسده وتحصينه لهول ما يعتمل عليه من المكان والزمان في تجارب العذاب.

يقول الحرّ «وحيداً سوف أحمي جنّتي» وحين يتصور الوطن يصوره «جَوْفاً مهترئاً وأحشاء معروضة للبيع»... حتى الغناء فإنه يتصوره على «المقصلة»⁽²⁷⁾... أو (لِنُقْلُ) يمارسه على المقصلة.

■ حاشية في شعر المعتقل

يصعب في الحقيقة الكلام على شعر أسر ذي قيمة جمالية في معتقل أنصار خارج نطاق هذين الشاعرين (الحر ومرضى)... والملاحظ أن الذين دخلوا المعتقل وكتبوا سيرتهم فيه أو انطباعاتهم عنه، وأثبتوا بعض الأشعار والتأملات التي جرت على أqlامهم، يعتزون سلفاً (وبصدق)، بأنهم ليسوا شعراء... وأن ما أثبتوه هو مجرد تأملات أو مشاعر فاض بها الوجدان في لحظات الأسر الصعبة... هناك استثناء خاص من حسين شبيب الذي كتب زجلية مؤثرة في المعتقل... وبعض القصائد بالفصحى... وأثبتها في نهاية كتابه «جمهورية أنصار العربية» مع اعتذار من الشعراء كما يقول... «فهي أول محاولاتي في كتابة الشعر» بالفصحى...

كذلك أثبت إبراهيم عواضة في نهاية كتابه «مشاهدات من أنصار» مجموعة من القصائد كتبها في المعتقل... وهو يشير أيضاً إلى أنها تجاربه الأولى في كتابة الشعر... وذلك في معرض حديثه عن أمسية شعرية أقيمت في المعتقل وشارك فيها بقصيدة⁽²⁸⁾.

سعدون حسين كذلك، يفرد في كتابه (أنصار 33) «أدب المعتقل»⁽²⁹⁾ فصلاً أخيراً (الفصل السابع) لأدب المعتقل... حيث يثبت فيه حوالي خمساً وخمسين نصاً بين قصيدة ورسالة وخاطرة... لمعتقلين وأسرى... مع ذكر أسماء بعضهم الصريحة أحياناً، والحروف الأولى من أسماء آخرين... في أحيان أخرى... وما يمكن قوله في يحمل هذا النتاج الشعري، هو أنه نتاج مشاعر وتأملات صادقة وحارة... ولكنها ليست مجدولة ببنية الشعر ولغته وبنائه... إلّا في استثناءات قليلة لا تعكس القاعدة.

.....
.....
.....

الوجه الآخر لتعامل الأسير الأنصاري مع جسده،... (هذا التعامل المستفزّ الحنون حيث الحواس مفتوحة على مصاريعها. جارحة. والأسير أوركسترا صخب وهمس...). الوجه الآخر هو تعامل الجلّاد الإسرائيلي مع الجسد الأنصاري... وهو وجه النقيض المغالي المدمر لهذا الجسد.

جسد الأسير متتهك في أنصار. ومذكرات المعتقل طافحة بالإشارات إلى ذلك... فالإنسان ما أن يدخل إلى المعتقل حتى يتحول إلى رقم... «وأي منا يطلب من خلال رقمه»⁽³⁰⁾ كما يقول إبراهيم عواضة... كما أنه يرشّ كحشرة بمسحوق أبيض هو الد. د. ت...

وكان أحد المدربين على لعبة الكاراتيه من الشرطة الإسرائيلية لحراسة المخيم «بحاجة دائماً لشخص يجعل منه كيساً للتدريب. وقد وصل به المطاف لمرحلة أن يوقظ البعض من النوم ليمارس هوايته هذه...»⁽³¹⁾.

إن بالإمكان وصف الأسير في المعتقل، بالإنسان - الرقم أو (الإنسان - الحشرة) أو (الإنسان - كيس التدريب) ...

ومن مظاهر الانتهاك أن تعرض جموع الأسرى على المدنيين الإسرائيليين كما تعرض حيوانات في سيرك ... «بالت طفلة إسرائيلية على الأسرى» أثناء عرضهم على المشاهدين (يقول سعدون حسين في كتابه 100 يوم ...)⁽³²⁾.

ومن بين الكلمات الكثيرة المعبرة عن الانتهاك الجسدي الهائل للأسير، بالإمكان اقتراح ثلاث كلمات أو مفاتيح». وهي: المرحاض ... الكرياج ... العضو التناسلي.

«المرحاض يقزم كل الأحلام»⁽³³⁾ يقول لامع الحر. فالمراحيض كانت «عبارة عن حفرة يذهب إليها كل عشرة أشخاص سوياً أثناء الزار»⁽³⁴⁾. وكان المرحاض ممنوعاً على الأسير لدى حاجته ... فكانت التعميمات تقول بأنه «أثناء النهار ممنوع الذهاب إلى المرحاض إلا بإذن من قيادة المعسكر التي يتوقف منحها لهذا الإذن على رغبتها في ذلك ... وأثناء الليل ممنوع الذهاب إلى المرحاض أبداً حتى لو برزت في ثيابك»⁽³⁵⁾.

«... وفي الأيام الأولى انتشر مرض الإسهال فكانت ترى العشرات يبرزون في ثيابهم لأنه لم يكن مسموحاً لأحد أثناء الليل بالذهاب إلى المرحاض. البعض استعمل صحن طعامه، وأحياناً يحفر مكان نومه جورة صغيرة كي يبرز فيها...»⁽³⁶⁾.

وهناك ضروبة عجيبة أخرى من تعذيب الأسرى باستعمال السوط ولسع الجسد به لسعاً كاوياً ... والتركيز على العضو التناسلي منه خاصة ...

«... أحد الرفاق العائدين توأ من التحقيق (يقول أحد المعتقلين) رماء شرطي أمام البوابة كما ترمى جثة ننتة ... هرع البعض لحمله، فهو لا يقوى على السير. كانت رجلاه متورمتين بشكل واضح ... الثياب ممزقة كتوافد ... تنبئ لك بما تخفيه من خطوط لسوط جلدي رسم نفسه بدقة متناهية فوق الجلد الناعم حتى بدا الجسد كأنه جملة سياط متراصة ... تنقشع من خلال الوجه عيانان بارزتان اشتد احمرارهما ... نعود بعدها لاستقبال آخر ينزف دماً من فمه سببته ضربة للحنجرة أفقدته الصوت ... ترافقه مجموعة آتية من سجن بعيد بعد غياب عدة أيام ... يحمل كل منهم جعبة مليئة بحقائق التعذيب بالكهرباء والكلاب والأفاعي ... يضع أحدهم راحتيه إلى أسفل بطنه ويسير ... وعند الاستفسار منه علمنا أنهم ربطوا خصيتيه وقضيه بخيط ثم شدوه لفترة يوم كامل مهددينه بقطع نسله»⁽³⁷⁾.

وئمة حكايا كثيرة أخرى للتعذيب الجسدي العنيف، مشابهة لهذه الحكاية ... ولعل الحكاية التالية تبرز الحدود التي ليس لها وصف يناسبها، في باب انتهاك الجسد، وتتعلق بتعذيب حكم رياضي دولي ومسؤول لناد رياضي في مخيم الرشيدية يدعى الأستاذ دياب ... فقد تورم رأسه ورقبته، وجحظت عيناه، بعد أن أجلسوه فوق كرسي حديدي موصول بالكهرباء ...

«كان يقفز عالياً بمجرد ملامسته ليضرب على رأسه بالعصا في نفس الوقت ... ثم أحضروا قضيباً حديدياً

ليدخلوه في دبره طالبين منه الاعتراف بأنه يحمل رتبة نقيب. وانتهى أمره بأنه صار يركض في الغرفة بشكل جنوني ويصيح: الصراخ في رأسي... أوقفوها... قتلتي... سجلوا نقيب... سجلوا نقيب...⁽³⁸⁾. هكذا انتهك الجسد العربي والإسلامي الحي، في معتقل أنصار... هذا الجسد الذي هو مقدس وحرمة من الحرمات في مفهومنا المعتقدية والإنساني... لكن تقاسم القهر في المعتقل، ورغبة الحياة العارمة لدى الأسرى، شكلاً منه جسداً كلياً هائلاً ممانعاً ومنصراً... شكلاً منه مطهراً وقيامة. إن معتقل أنصار كلية كبيرة خرجت أعظم تلميذ لتاريخنا العربي الطويل: المقاومة الوطنية اللبنانية.

الحواشي

- (1) نشر بعض من فصوله في مجلة «الشرع» اللبنانية، والقسم الأكبر منه ما زال مخطوطاً بحوزة المؤلف.
- (2) حسين شعيب... جمهورية أنصار العربية. ط 1/الدار العالمية. بيروت. ص 9 من التقديم بقلم شاعر جنوبي.
- (3) حسين بيضون. غضب الأسير. مؤسسة فكر للأبحاث والنشر بيروت. ط 1/1985. ص 8.
- (4) حسين بيضون. غضب الأسير... المذكور آنفاً ص 9.
- (5) سعدون حسين. مائة يوم في معتقل أنصار. مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط 1983. ص 157.
- (6) يذكر إبراهيم عواضة في كتابه مشاهدات من أنصار المذكور آنفاً (ص 57) أن هؤلاء المخاتير والشاوشية يستأثرون بالدخان والطعام، ويسميه «عصابات مطبخية». ويشير سعدون حسين في كتابه 100 يوم في معتقل أنصار إلى الكرباج الذي تزود المختار به السلطات الإسرائيلية (ص 84).
- (7) يسميها إبراهيم عواضة «كلية أنصار». أنظر كتابه آنف الذكر... مشاهدات من أنصار. ص 50.
- (8) جمهورية أنصار العربية. حسين شعيب. ذكر آنفاً. ص 127.
- (9) ينظر تصميم الطائفة وحادث صنعها في كتاب حسين بيضون «غضب الأسير» آنف ذكره... ص 48 و 60. كما ساهم في تصميمها المهندس الأسير زهير شحادة حسب الرواية الشفهية لحسين بيضون.
- (10) المرجع المذكور أعلاه... ص 148.
- (11) المرجع المذكور آنفاً. ص 34.
- (12) أنظر إبراهيم عواضة. مشاهدات... ص 97 وما بعدها.
- (13) إبراهيم عواضة. مشاهدات من أنصار... المذكور آنفاً... ص 98.
- (14) انظر حسين بيضون. غضب الأسير... مذكور آنفاً. ص 51.
- (15) حسين بيضون. غضب الأسير... المذكور آنفاً. ص 47.
- (16) نفس المرجع آنف... ص 49.
- (17) المصدر المذكور آنفاً... بيضون... ص 25.
- (18) وهو هنا حسين بيضون.
- (19) المصدر المذكور آنفاً ص 25.
- (20) سعدون حسين... 100 يوم... ص 49.

- (21) لامع الحر... في «مهاجر من أنصار». مخطوطة بحوزة المؤلف.
- (22) لامع الحر... مخطوطة معتقل من أنصار... المذكورة آنفاً.
- (23) المرجع المذكور أعلاه...
- (24) حسن مرتضى... وادي جهنم (شعر) دار آسيا. بيروت ط 1/ص 16.
- (25) ... المرجع المذكور آنفاً... ص ص 20/21 كذلك ينظر قوله في قصيدة جنون الأسير جنون الجبل (ص 55/54/53):
- «جبل في ذاكرة الوادي/مقلوباً جاء من الماضي/فقد السفح ودار لیسأل عن عقله/...
 راح الجبل الشامخ كالمجنون يخض النفس... /يداه مقيدتان إلى الخلف/لفوا جبهته حول الأذنين فطأ رأسه...
 ماذا يفعل حين تجوع زهوره؟
 هل ينتقم الأولاد إذا علموا أن الجذر
 الأب الرب... جبل عامل
 قد مات أسيراً؟...».
- (26) النموذج التالي المأخوذ من مجموعة «وادي جهنم» المشار إليها سابقاً هو النموذج الأمثل لطريقة حسن في كتابة الشعر:
- «... هذا الطيران الوهمي لطير/حطب من شجر الضاد الأغصان/وجع من لغة الصفصاف كلاماً... وهو العارف أن الحلم
 يعيش به الوهم ويعلم أن الوهم تعيش به الأحلام... ويعلم أن رياحاً متحجرة كسرت أجنحة كان يطير بها جبران... وهذا
 الطير سيدخل من أسفل مثذنة الصوت ليخرج من أعلاها... طفلاً ينحت من جسد الريح هروب حسان...».
- وهذه القصيدة هي وصف لإحدى لوحات سلفادور دالي ومستغرب أن يكتبها الشاعر الأسير في أنصار في آذار 1983... (27) من قصيدة الكرنفال المشار إليها آنفاً.
- (28) ابراهيم عواضة... مشاهدات المذكور سابقاً. ص 68.
- (29) سعدون حسين. أنصار 33/أدب المعتقل: مؤسسة الرؤى للطباعة والتوزيع والنشر. بيروت. ط 1/1984.
- (30) ابراهيم عواضة... مشاهدات من أنصار المذكور آنفاً ص 36.
- (31) المرجع المذكور آنفاً... ص ص 34/33.
- (32) سعدون حسين... 100 يوم المذكور آنفاً. ص 27.
- (33) من مخطوطة «مهاجر من أنصار».
- (34) سعدون حسين... 100 يوم... المذكور آنفاً. ص 31.
- (35) المرجع المذكور آنفاً نفسه... ص 38/37.
- (36) المرجع نفسه... ص 38.
- (37) ابراهيم عواضة... مشاهدات من أنصار. مذكور آنفاً ص 38.
- (38) المرجع المذكور آنفاً... ص 45.